

البحث الأدبي؛ الأسس والمنهج

د. عبد الله لاطرش

د. فاطنة يحيوي

المركز الجامعي علي كافي - تندوف - الجزائر

الملخص:

إنّ البحث عموما هو محاولة جادة لاكتشاف المعرفة والتّقييد عنها، و تتميتها وفحصها و تحقيقها بنقص و نقد عميق ثمّ عرضها عرضا وافيا يخدم العلم و الإنسان أينما كان و حيثما وجد، إنّ المجتمعات المتطورة تعتمد من خلال جامعاتها ومراكز البحث لديها إلى تشجيع وتنمية قطاع البحث العلمي راصدة له كلّ الإمكانات المادية و البشرية ليحقق الأهداف و أسمى الغايات، إنّ البحوث الأدبية على الخصوص تكتسي أهميتها البالغة من حيث أنّها تعنى بالدراسات الأدبية كحقل شامل متنشعب ومتداخل مع علوم أخرى في فضاء العلوم الإنسانية بشموليتها، لأنّ الأدب بمضامينه المتعددة هو ديوان المجتمع، ولافتته الكبرى في تشكيل الهوية و المنجز الثقافي و الحضاري لأفراده. من المفيد أن يدرك طلاب الجامعات عموما أهمية منهج البحث الأدبي ومتعلقاته وطلبة الدراسات الأدبية بشكل خاص ليتسنى لهم شقّ طريقهم مع البحث بشكل منظم و مرتّب بأدوات و طرق علمية آمنة، ولفهم هذه الأبعاد كلّها و الوقوف على قيمة البحث الأدبي، يجدر بنا طرح الأسئلة الآتية و الإجابة عليها: ما هو البحث الأدبي؟ و ما أسسه؟ و ما منهجه؟ الكلمات المفتاحية: البحث، المنهج، الأدبي، المنهجية، الأسس.

Abstract:

The research in general is a serious attempt to discover and excavate knowledge, develop it, examine it and achieve it with deep investigation and criticism, then present a comprehensive presentation that serves science and people wherever and whenever it is found. The developed societies intend, through their universities and research centers, to encourage and develop the scientific research sector, monitoring all its material and human capabilities to achieve the goals and the highest goals. Literary research in particular is extremely important in that it deals with studies.

Literary as a comprehensive field, manifold and intertwined with other sciences in the space of human sciences with their comprehensiveness, because literature with its multiple implications is the office of society, and its greatest gesture in the formation of identity and the cultural and civilizational achievement of its members. It is useful for university students in general to realize the importance of the literary research curriculum and its implications, and students of literary studies in particular, so that they can make their way with research in an organized and organized manner with safe scientific tools and methods.

In order to understand all these dimensions and determine the value of literary research, it is worth asking the following questions and answering them: What is literary research? And what is the basis for it? What is his metho ?

Key words: research, curriculum, literary, methodology, foundations

أولاً: ماهية البحث الأدبي:

أ - البحث لغة و اصطلاحاً:

جاء في لسان العرب أنّ البحث هو " التفتيش و التفحص " ¹، و جاء في كتاب العين للخليل قوله: " البحث طلبك الشيء في التراب وسؤالك مستخبراً تقول: أستبحث عنه و أبحث وهو يبحث بحثاً " ²

أمّا اصطلاحاً فـ "هو فن هادف وعملية لوصف التفاعل المستمر بين النظريات والحقائق، من أجل الحصول على حقائق ذات معنى، وعلى نظريات ذات قوى تنبؤية". ³
وهو أيضاً: " طلب الحقيقة و تقصّيها وإذاعتها بين الناس". ⁴

ب-البحث الأدبي: طلب الحقيقة الأدبية فيما حفظ لنا التراث من مصادر، وإذاعتها. ⁵

مفردة "الأدب" تحتاج منا ههنا تعريفاً، فهو - أي الأدب - "يقصد به إلى إثارة الانفعالات في قلوب القراء و السامعين، ولذلك كان يعتمد على الخيال، يعتمد عليه في التركيب الكلي لآثاره... إذ الأديب لا يتحدث حديث الشخص العادي المجرد كلامه من التصوير، بل يتحدث حديثاً تصويرياً، وهو حديث يختلف باختلاف معانيه واختلاف مواقفه واختلاف أحاسيسه ومشاعره، فقد يقف على شاطئ بحر، فيحس كأنّ البحر يننّ و يلهث من التعب، وكأنّ صراعا لا يزال ناشبا بين أمواجه ورمال الشاطئ وتدور به الأيام و تتبدّل حالته النفسية، ويقف في المكان نفسه و أمام البحر نفسه فيراه متألئناً متألّفاً ضاحكاً، و يتخيّل كأنّ لقاء سعيداً ينعقد بين أمواجه و رمال الشاطئ حتى لتظن أنّهما يتعانقان عناق المحبين، وترتدّ الأمواج على استحياء، وقد أشرب وجهها حمرة الخجل" ⁶

إنّ الأديب حين يكتب أو يتحدث يؤدّي جملة من المعاني والرسائل الممزوجة بالخواطر و الخوارج و الأفكار السّابحة، يقول شوقي ضيف "...أما الأدب فلا بدّ فيه من الأفكار والخوارج و الخواطر و المعاني حتّى يؤثّر فينا و حتّى نحسّ بمتاع فيه، لأنّه يخاطبنا و يحدثنا وعن طريق حديثه و فهمنا له يكون متاعنا بكلامه وما يحمل من غذاء لعواطفنا، و مشاعرنا، و هو غذاء وجداني، قد يداخله الفكر، و قد يداخله العقل و الذّهن، ولكن لا ليتحوّل عن وظيفته

من اثاره الانفعالات في الإنسان، بل لكي ينهض بها على خير وجه".⁷

إنّ الأديب ابن بيئته و مجتمعه يعيش معه الأتراح و الأفراح، الانتكاسات والانتصارات، الآلام والآمال، فهو ليس مثاليا يجلس في برج بعيدا عن الناس من حوله فلا يهتمّ لشأنهم أو ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، إنّه " يمتزج بمجتمعه حتّى يكون جزءا لا يتجزأ منه، و حتّى يعبر عن كلّ خواطره الجماعية وكلّ ما يموج به من أفكار و أحاسيس، وهل من ريب في أنّه لا يصنع أدبه لنفسه و إنّما يصنعه للجماعة التي يعايشها، وإلا ما خاطبها به ولا نشره فيها بل كان يطويه في أدراج مكتبته"⁸

الأدب باعتباره فضاء للتعبير عن النفس وأحوالها وعن الفرد و طموحاته، فهو أيضا يتجاوز ذلك للتعبير عن الناس و ظروفهم و أحلامهم وعلاقاتهم البينية و الغيرية، ومن هنا " كان الأدب ذاتيا غيريا في الوقت نفسه، فهو ذاتي في صدوره عن صاحبه و أحاسيسه و مشاعره، وهو غيري في تصويره لمشاعر الناس و أحاسيسهم وكل ما يموج به مجتمعهم من قيم مختلفة، وبذلك كانوا حين يقرءون أديبا لا يقرءونه وحده و إنّما يقرءون أنفسهم و أنفس من حولهم، وكأنّهم يعيشون أحاسيسهم و أحاسيس مجتمعاتهم"⁹

إنّ البحث في مجال الأدب ليس نزهة رخيصة، أو لعبة بسيطة مسلية، إنّما " كان لا ينبغي ألا يهجم ناشئ على البحث في الأدب قبل أن يتسلّح له بقراءات كثيرة فيه وفي مباحثه حتّى يجد نفسه، وحتّى تتكون شخصيته تكوّنا أوليا...فالباحثون لابدّ أن تتكون شخصياتهم من خلال ما يقرءون في الأدب و آثاره و تاريخه و سير أصحابه وفي النّقد الأدبي بجميع فروعه، حتّى إذا تبيّنوا أنفسهم و تبيّنت لهم قدراتهم على البحث مضوا فيه عن بصيرة و هدى لا يتخبّطون ولا يتعثرون و لا يضلون في متاهاته و شعابه الكثيرة، فقد استقام لهم الطريق القاصد و قامت عليه أمامهم الصوّة و الأعلام".¹⁰

ثانيا-منهج البحث الأدبي: إنّ منهج البحث الأدبي هو " الطريقة التي يسير عليها دارس ليصل إلى حقيقة في موضوع من موضوعات تاريخ الأدب أو تاريخ قضاياها منذ العزم على

الدراسة و تحديد الموضوع.. حتّى تقديمه ثمرة عمله إلى المشرفين أو الناقدين و القراء، "مقالا "أو" رسالة"، أو "كتابا"...¹¹

والموضوع هنا يقتضي مني الوقوف على مفردة " منهج " و فوائدها، والمعطى الأول هنا هو أنّ المنهج مفتاح و خارطة طريق يسلكها الباحث و الطالب نحو الوصول إلى الغاية العلمية أو إدراك الحقيقة المعرفية ومن فوائده، نذكر:

- 1- يعلم الباحثة و الطلاب كيف يبدءون و كيف ينتهون.
- 2- يوفر الوقت و الجهد.
- 3- يجنب الوقوع في أخطاء السابقين
- 4- يوفر التنظيم و الترتيب و حسن الاختيار و الأخذ بالأفضل و الأجود.
- 5- يوفر المتعة المعرفية و يجمع بين المنطقية و الحسية
- 6- يحقق الاعتراز بالقدرة على الإنجاز و الاستمتاع بتحقيق الأهداف
- 7- يساعد على التعامل الجيد مع المصادر و المراجع و الاستفادة من المعلومة و حسن توظيفها في النطاق المخول لها.

هذه بعض الفوائد كمثال ليس إلّا، ولو استطرنا فإنّ الميزات كثيرة و متنوّعة.

ثالثا- الأسس: إنّ البحث الأدبي يقوم على أسس و جب التنويه بها و الوقوف عليها، ونذكر منها الآتي :

أولا- مادة البحث الأدبي: فمن البديهي أنّ مادّة البحث الأدبي هي الأدب بجناحيه (الشعر و النثر) وما دار حولهما من المواضيع و الألوان و الأشكال وقد يرتبط الأدب بحقول معرفية أخرى تتداخل معه و تتساق كالفلسفة و التاريخ و علم الجمال وغيرها...

ثانيا- اختيار البحث الأدبي: ليس اختيار البحث الأدبي شيئا سهلا ميسرا، بل الأمر دونه التعب و المشقّة، " إذ لابدّ للباحث من ثقافة واسعة كي يهتدي إلى بحث أدبي طريف ولذلك كان ناشئة الباحثين يجدون صعوبة في اختيار موضوعات بحوثهم... وأوّل خطوة في هذا الأمر هي أن لا يلقوا بزمالمهم في بحوثهم إلى غيرهم و أن يعملوا على الاهتمام إليها من

خلال قراءاتهم و عكوفهم على كتب الباحثين من قبلهم..¹² وثاني خطوة له، أن يعتمد إلى التخلّص من الخضوع و الانقياد الأعمى لأفكار و آراء السابقين له، متطلعا إلى عالم حر يجد فيه شخصيته و كيانه، فهو إذ يقرأ لهم و يدوّن ليس معناه أنّه ينقل بضاعة من هنا إلى هناك كما العامل الأجير، إنّما هو يدوّن أفكارهم ليناقلها و يخضعها للميزان - الذي تعلّمه و تدرب عليه- ويضيف عليها، " ولكي تكون خطوات الباحث الأدبي سديدة ينبغي أن يحدّد لنفسه العصر الذي يعمل فيه و المكان أو الإقليم و الشخوص و الجوانب المختلفة المتّصلة بالبحث".¹³ على الباحث الأدبي أن يكون ملماً بعلوم اللغة العربية و آدابها و يضاف إليه ثقافته و اطلاعه الطيب بالفكر الفلسفي كي يستطيع البحث و فهم أبي العلاء المعري مثلا أو معرفة شعر الحلاج و غيرهما كثير.

ثالثا- تنسيق مواد البحث الأدبي: والمقصود هنا منهجية البحث و خطة البحث المرتبطة بعناصر واضحة و متسلسلة، فالكثير ينزلق مع فكرة أنّ الأمر سهل و بسيط يحتاج فقط جمع المادّة و توزيعها على فصول البحث وهو - صحيح نظريا - لكن حين التطبيق تظهر الصعوبات و العقبات.

لأنّ أخطر ما يعرّض "بحثا أدبيا للانهايار أن يجمع صاحبه كلّ ما يتصل بعنوانه من مادة علمية بدون عناية باختيار أو تصنيف، وكثير من البحوث يؤدّي بها ذلك إلى أن تصبح طوائف من المعارف... كثيرا منها يسوده التشويش وتشيع فيه الفوضى".¹⁴

إنّ خطة البحث هي وجه البحث و مقام الباحث الأدبي حيث تتشكّل صورته لدى مجتمع البحث و المعرفة من حوله، لذلك هي تحتاج العناية القصوى و الاهتمام الشديد في التنظيم و الترتيب و التصنيف، "هي رسم للخطوط التي سيسر عليها الموضوع، وللصورة التي سيكون عليها... هي شرط في كلّ عمل منهجي منظم يراود له النجاح".¹⁵

رابعا- الاستقراء و الاستنباط: البحوث الأدبية في مجملها تقوم على هاتين الدعامتين حيث يتم "استقراء الحقائق الجزئية واستنباط الحقائق الكلية و القضايا العامة، و لا يراود بالاستقراء جمع الحقائق المفيدة و غير المفيدة، فدائما لابدّ من الانتخاب و الاختيار و الانتقاء ولا بدّ

أيضا من الاستقصاء الدقيق و الإحاطة التامة بكلّ الحقائق المتّصلة بالبحث الأدبي و نصوصه الجزئية، حتى يمكن الوصول إلى الحقائق و الصفات الكلية، ولذلك كان ينبغي على الباحث في الأدب أن يبدأ بجمع الأمثلة و النصوص ويصنّفها حسب الموضوعات التي يتناولها في بحثه المعين¹⁶.

إنّ الاستقراء بحق هو بوصلة البحث الأدبي وعماده وقوامه السليم ويشترط فيه أن يكون شاملا غير منقوص لتكون النتائج و الأحكام سليمة صحيحة، فمثلا عند بحثك في الشعر الإسلامي لابد لك من استقراء الوضع و الفترة بشكل جيّد ثم استنباط التأثيرات المختلفة للإسلام في شعر المخضرمين وكذلك استنباط خصائص الشعر في البيئات المختلفة واستخلاص العلل و الأسباب التي دفعت ببيئة معينة إلى الاهتمام بضرب معين من ضروب الشعر و التوسع فيه، والوقوف على المؤثرات المحلية و الإقليمية وما تتركه من آثار؛ و" على هذه الشاكلة يمضي البحث الأدبي، فهو استقراء و استقصاء للنصوص وإحاطة بها من جميع أطرافها، وهو استنباط واشتقاق من النصوص للخصائص و الصفات، مع بيان العلل الباطنة المستكنة، ولابدّ مع كلّ استنباط من نصوص يستخرج منها"¹⁷.

خامسا- دقّة التفسير: إنّه أسّ ضروري ومعلم هام بالبحث الأدبي و" لعلّ دقّة التفسير أهم صفة ينبغي أن تتوفّر في البحث الأدبي، و هي صفة ترجع في حقيقة الأمر إلى ملكة الباحث و مدى قدرته على تبين العلل للظواهر الأدبية، إذ ما يزال يدرس العلل و الأسباب الفرعية حتى ينتهي في الظاهرة إلى أسباب و علل عامة، تضم حقائق الظاهرة الجزئية و تفسرها تفسيراً دقيقاً، وقد تكون الظاهرة من الغموض بحيث يختلف الباحثون فيها اختلافات كثيرة، أو قل يختلفون في تفسيرها و تبين أسبابها"¹⁸.

إنّ التفسير يأخذ بعين الاعتبار الوقوف على الزمان و المكان و البيئة و تشعبات العلاقات الاجتماعية و ارتباطات التاريخ و تفاصيل الحياة الاجتماعية و التعاطي مع الحياة بكلّياتها، ومن هنا كان لزاما " أن يسند البحث الأدبي بتفسير يعمّه، و بتفسيرات تتداخل في بنائه العام،

بحيث لا يجري الكلام على عواهنه، وإنما توضع له العلل و الأسباب التي تجعل منه عملا مترابطا محكما شدّت أجزاؤه بعضها إلى بعض شدا وثيقا".¹⁹

سادسا- **التدقّق و التحليل:** إنّ التدقّق ملكة تنشأ بفعل الانغماس في القراءة و كثرة الاطلاع وتصفح الكتب و المصنفات شعرا و نثرا وتتبع الآثار من أمهات التأليف في القديم و الحديث "بحيث تصبح استجابة صاحبها لما يقرأ استجابة صادقة، وهي أول خطوة في البحث الأدبي، فلا بد أن يحس الباحث بالعمل الأدبي ويشعر بأنّه أثر فيه بروعته...وينبغي أن نجّده من كل عنصر يفسده حتى يكون تذوقا سديدا، وحتّى تكون استجابتنا للعمل الأدبي استجابة صحيحة".²⁰

سابعا- **العرض و الأداء:** وهي تلك الصّورة الرائعة التي يظهر بها البحث من حيث تناسقه و ارتباط حلقاته وعناصره فتكون المقدمات سببا في الوصول الى النتائج واطراد الكلام محقّق للغايات وأكثر سمة ترتبط بعدا العنصر هي الوضوح؛ فلا بد أن تكون البداية والوسط والنّهاية تتسم بالوضوح و روعة البناء، فاختيار عناوين البحث الرئسيّة والثانويّة لا يجب أن تكون اعتباطا أو عفوية، إنّما التركيز عليها والتدقيق في إنشائها واجب وضرورة "فأساس العرض لأي بحث أدبي هو إنّما هو التمثّل الذي يحيله عملا متكاملا، إذ الباحث لا يعرض معلومات، وإنّما يعرض بناء متناسقا يسود بين أجزائه وفقراته المنطق والروابط الذّهنية المحكمة، فلا نشاز هنا أو هناك، ولا تكرار من شأنه أن يضعف البحث ... وبجانب العرض الدقيق وأوضاعه ينبغي أن يكون الأداء سديدا، بحيث تتوفر للباحث معرفة دقيقة بالألفاظ التي يستخدمها...".²¹

خاتمة:

بعد هذه الجولة مع البحث الأدبي وأسسّه، فإنّه من الواجب الحديث عن ضرورة الاهتمام بالتجديد في البحث الأدبي باعتباره كائن حي تجري عليه سنن التغيير والتطوير والتجديد؛ والتجديد في حقيقة الأمر يفرض نفسه من خلال عدّة توجهات واعتبارات أساسية، نذكر منها:

أ- وجوب مراجعة المادة القرائية التراثية والمعاصرة، مع إدراك الفروق الجوهرية بين منظور القدماء ومنظور المجدّدين، والأخذ في الاعتبار ضرورة قراءة الآخر فهما

وحوارا وجدلا ونقاشا دون افتراض سطوة روح المؤامرة، أو التوقف عند حدّ الانغلاق أمامه، أو الانبهار به.

ب- محاولة رد الاعتبار والهيبة لدرسا الأدبي والنقدي الذي شهد نمطا من الانحدار المرحلي بتحوّله إلى نمط مدرسي، عاجز عن الوفاء بما تتطلبه نصوصنا العربية من قراءات متجدّدة.

ت- تجاوز مرحلة النرجسية واستعلاء الذات، وكذا مرحلة الدّهشة والانبهار أمام الآخر أو التماهي معه.

ث- اجتياز مرحلة العشوائية والفوضى التي تشهدها بعض الدّراسات الأدبية والنقدية دون الوصول إلى نتائج تستحقّ الرّصد و التسجيل في صورة قاعدة علمية؛ فمن المؤكّد أنّ ساحة الدّراسات العربية قد ابتليت بصور من التكرار و الاجترار، حكمت على مناهجها ودارسيها بالنّمطية والجمود إلى حدّ التراجع في بعض الأحيان..

ج- وجوب تعرّف حقيقة البحث العلمي الجاد، وتحليل آلياته وخطواته وصولا إلى خصائص البحث الأدبي بصفة خاصّة.

ح- الانطلاق من تعدّدية القراءة للمناهج، بما يسمح بتعرّف طبائع الفروق والحدود الفاصلة بينها من جانب، والانطلاق إلى التوقف عند أفضلها لدرس الآداب الإقليمية أو الأممية من جانب آخر.

خ- دراسة أخلاقيات البحث و الباحث في حقول الدّراسة الأدبية التي يصعب فيها الادّعاء أو الزّعم بقول الكلمة الأخيرة لما تحتمله من وجهات النّظر، التي ربما تتعارض حول القضية الواحدة، مع تأكيد أصالة البحث من واقع الصّدق.. واستقصاء المصادر والمراجع واستقراء أبعاد الظواهر.

د- احترام الحدود الفاصلة بين الدلالات و المصطلحات والمفاهيم المقتّنة في مساق البحث الأدبي بين المسلّمات والبديّهيات، والبرهنة والاستدلال، والنسبي والمطلق،

والجزئي والعام، والفروض والظواهر، والعلل والنتائج، والحدس والاحتمال، والإفادة الحقيقية من تراكمات المعرفة.²²

الهوامش:

- ¹ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، مصر، د. ط، ص: 22
- ² العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، دار الهلال، مصر ج: 3، ص: 207
- ³ أركان أونجل، مفهوم البحث العلمي، ترجمة محمد نجيب، مجلة الإدارة العامة، يصدرها معهد الإدارة العامة بالمملكة العربية السعودية، ع 40، يناير 1984، ص 148
- ⁴ علي جواد طاهر، منهج البحث الأدبي، مطبعة العاني بغداد، العراق، ص: 21
- ⁵ علي جواد طاهر، المرجع نفسه، ص: 21
- ⁶ شوقي ضيف، البحث الأدبي. طبيعته. مناهجه. أصوله. مصادره، دار المعارف، القاهرة، ط: 9، 1972، ص: 10
- ⁷ شوقي ضيف، المصدر السابق، ص: 11
- ⁸ المصدر نفسه، ص: 13
- ⁹ المصدر نفسه، ص: 13
- ¹⁰ المصدر السابق، ص: 18
- ¹¹ علي جواد طاهر، المرجع نفسه، ص: 21، 22
- ¹² شوقي ضيف، المصدر السابق، ص: 17
- ¹³ المصدر نفسه، ص: 19
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص: 31
- ¹⁵ علي جواد طاهر، المرجع نفسه، ص: 59
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص: 37
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص: 46
- ¹⁸ شوقي ضيف، المصدر السابق، ص: 49
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص: 62
- ²⁰ المصدر نفسه، ص: 63
- ²¹ المصدر نفسه، ص: 76
- ²² عبدالله التطاوي، منهجية البحث الأدبي ومداخل التفكير العلمي، الدار المصرية اللبنانية، ط: الأولى، 2005، ص: 53.54.55